أرني جانبك السيء

الكاتبة: ثقة يوسف حامد

دار مارسلين
للنشر الإلكتروني

تصميم صفحة شغف مصممة

نوع العمل: رواية

تعبئة وتنسيق: كوثر زدور

تصميم الغلاف: صفحة شغف مصممة

موكاب: سناء مسكين

إشراف عام:

سجود شيبوني

فريق دار مارسلين
للنشر الإلكتروني

بسم الله الرحمن الرحيم

اهـــــداء

- إلى أبي رحمه الله ...

لم تكن أنت الهدية التي أهدتني الحياة إياها، بل كنت أنت الحياة التي أهدِيت لي، دمت في نعيم الرب ودامت ذكراك تنير دربي وتدفع قلمي للتحرك.

- إهداء إلى نفسي ...

- إلى غاليتي وصديقتي دعاء أنور ...

- وإلى كل أولئك الأعزاءِ الذين عرفتهم يومًا ...

الفصل الأول

«تجسيد الخطايا»

في يوم مألوف التقيت بشخص غير مألوف، وحينما دنا مني ذلك الغريب همس بلطف:

الحياة مقابل الخطايا، هل تقبلين هذه الفكرة؟

...

بعيون تمتلئ رعبًا نظر إليّ، وبأنفاس مضطربة وصوت ضعيف صرخ مستنجدًا خائفًا ووجهه المحمر أصبح مجرى لدموع متدفقةٍ لا تنتهي، لَكِنَّ المجرم الحامل للسكين في القصة كان أنا وهذا الضحية فاقدُ الحول والقوة كان طفلًا باكيًا لم يتخط الربيع العاشر من عمره حتى.

وحشية... هذا ما كان يبدو عليه الأمر!

يا إلهي هل هذا هو الكائن الذي أصبحت عليه؟

تساءلت بصوت خفيض واعتصرت قلبي الذي أنذرني بألم فظيع، لكن لم يكن مسموحًا لي أن أستكين ولا حتى أن ألين، فقد كنت أتصنع تلك التعابير الجامدة التي لهشاشتها وجب عليّ الخروج قبل انكسارها، لكن هل إلى خروج من سبيل؟

تقدم الرجل الذي أخفى وجهه خلف قناع شديدٍ سواده رامقًا ذاك الطفل المرتجف بنظرات حقد لا تنتهي، كنت سأصرخ... كنت سأنتحب... لكنني ظللت كصخرة صماء أنظر بجمود إلى المشهد الذي سرعان ما اصطبغ بالأحمر القاني، لون دماء الطفل الذي قد ذبح توًا أمامي، طعنتان ثم ثلاثة في الصدر وجهها الرجل الملثم بالسواد نحو جسد الطفل بكراهية خالصة مجسدة لا تأبه لمعنى الشفقة ولا تبالي لحروف الرأفة، فخَرَّ الطفل الصغير صريعًا فاتحًا فاه الممتلئ بالدماء، سائلة دموعه الأخيرة في عناء، ثم أُزهِقت روحه في وداع صامت مصبوغ فقط بلون الدماء.

لم أدرِ ماذا أقول وإنما تملكني رعب ما له من زوال، لقد شهدت جريمة القتل تلك وأنا أرتجف دون شعور حتى بتلك الدمعات السائلات كالشلالات المتدفقات بهدوء

بين طيات الفراغات المكتنفة لروحي، وعندما رمقني الرجل الملثم بنظرات نصره الملوثة همس في أذني قائلًا بفخر:

_لقد انتهينا، شكرًا للمساعدة!

فلم يتبق بعد ذلك ما يقال، ولا حتى كلمة عفوًا للرد على إزهاق روحٍ طاهرةٍ بريئة بسبب خطيئة نفس رذيلة، فكان صمتي هو الخيار الأوحد الذي اتخذته، ثم في هدوء تلك الليلة الكئيبة حملنا جثة الصبي المسكين ورميناها في النهر لتحاوطها المياه الباردة ماحيةً أثر وجودها عن هذا الكون مرة واحدة وإلى الأبد...

قهرًا عني طُلِب مني ذلك وقهرًا عني نفذته، فكيف أكون أنا ملامة في جريمة لم أرتكبها؟ لقد كنت المساعدة فحسب، توجب عليّ أن ألعب دور المساعدة التي تشهد على ارتكاب الخطايا بدم من جليد ووجه من حديد وقلب منسوج من خيوط رقيقة أفنتها شمس العالم الحارقة التي لا ترحم.

بدأ كل شيء بلقاء، لقاءٌ عابر مشؤوم في ليلة مقمرة مشبعة برائحة اللعنات القذرة، ليلة صادفتُ فيها بالفتاة المدعوة آسيا وانجرفت وراء عرضها الذي أفاض سمًا لوث أيامي، لكنني أتساءل ما إذا كنت لاأزال أنتظر مكافأة تجرعيّ لذلك السم التي تلوح في أفقي البعيد.

...

"كنهرٍ ملئ بالقذارةِ تنسابُ حياتي

كرياحٍ مُشبعةٍ باللعناتِ تَقَيَّدت أنفاسي

بضعةُ سنون وبضعةُ قرونٍ تمضي

ويظلُ حاليّ خاطِئًا كما هو خاطئ"

_عفوًا قومي بإعادة ما قلتي؟

همستُ وأنا في حالة اندهاش، مُحاربةً مشاعر الخوف والارتباك المختلطة داخل نفسي، مُحاولةً تنظيم ما يعصف بذهني من أفكار، فبحق الرب ما الذي تفوهت به هذه المخبولة للتو!

_لا داعي لكل هذا القدر من الصدمة، حسنًا ماريا عزيزتي قُلت أنني أعلم بشأن عائلتك، الكراهية وكذلك الحادث... أعلمُ بشأن كل شيء.

_من تكونين؟ وكيف علمتي بكل ذلك؟

صرختُ وأنا منفعلة بينما تلاشت كل ذرة من ذرات ضبط النفس التي كنت أحتفظ بها، ومن بين الظلال تقدمت تلك الفتاة التي كانت تحاورني بضعة خطوات إلى الأمام، سامحة للنور الخافت الذي ينبعث من عمود الإنارة أن ينعكس على وجهها مُظهرًا تفاصيله بدقة، لقد كانت فتاة في مثل عمري ربما، ذات عينين خضراوين كالعقيق اللامع، عكستا الإنارة الخافتة جاعلتين إياها تبدو كضوء بدر يتلألأ، لقد كانت عيناها الواسعتان تخلبان اللب وتخطفان البصر لتجعلاها تبدو مثل ملاك مجنح، خاصة مع ذلك الشعر الأشقر الذي انسدل بلطف ليغطي ظهرها مُطلِقًا لمعة ذهبية خافتة، جسدها المتناسق وابتسامتها الهادئة حفزا في خوف الأنثى الغريزي ومن دون شعور ولا حتى إدراك وجدت نفسي أتراجع بضع خطوات للخلف، بينما عيناي معلقتان على هذا الكائن الذي كان يبدو أقرب إلى تمثال منحوت في روما القديمة.

_أخائفة؟

سألتني بصوت رقيق، فلاحظتُ قطرات العرق التي أضحت تسيل على جبيني تزامنًا مع ازدياد دقات قلبي التي لم تكف عن الصراخ مترجية أن أستمع لإحساسها الأسود بأن هنالك خطبًا ما بخصوص هذه الفتاة.

_لستُ خائفة!

_إذا أخبريني لما تسللتِ خارج المنزل في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل؟ ألم يكن ذلك حزنًا؟ شعورًا بالمذلة؟ شعورًا بالاختناق وبال... خوف؟ ألستِ تهربين من عمتك التي تشبعك ضربًا؟

_توقفي! من أنت وكيف تعرفين كل ذلك؟

صرختُ مجددًا وأنا مصدومة، أحاول بالكاد الحفاظ على رباطة جأشي، وبدا الأمر كما لو أن هذه الفتاة التي التقيتها للتو على علم بكل ما يجري في حياتي! هل هذا مقلب أم هل في الأمر خدعة ما؟ تساءلت عن ذلك...

_الأمور تبدو غريبة صحيح؟

قالت وهي تقهقه، ثم انحنت إلى الأمام قليلًا وهي ترفع سبابتها في وقفة درامية وتسترسل قائلة:

_لدى عرض سيعجبك عزيزتي، أتساءل ماذا ستكون ردة فعلك إذا ما أخبرتك أنني أستطيع... أن أغير حياتك، أستطيع جعل كل هذه الألآم التي تعيشينها تتلاشى كما لو أنها لم تكن!

_أحقا ذلك؟

همستُ بتردد ثم أردفتُ:

_كلا أنت كاذبة!

أصدرت همهمة بسيطة وهي تتحدث راسمة ابتسامتها العريضة:

_لما لا تستمعين إلى ما عندي أولا ثم بإمكانك أن تطلقي أحكامك حول كوني كاذبة أم لا بعد ذلك.

_حسنًا سأسمع ما عندك، ولكن أمامك خمس دقائق فقط! وإذا لم يعجبني ما ستقولينه فسأذهب في حال سبيلي وأنتِ لن تقومي باعتراض طريقي أليس كذلك؟

_طبعًا طبعًا.

همست ثم قامت بشبك يديها خلف ظهرها وبدأت بالتكلم:

_أستطيع إعادتك إلى الماضي، لا تضحكي على ذلك اتفقنا، إنها الحقيقة فحسب، تعودين إلى الماضي وتمنعين الحادث من الوقوع و... تعيشين بسعادة وتختفي المأساة، أليس ذلك عرضًا رائعًا؟

_أنتِ مخبولة.

قلت وأنا أتراجع إلى الخلف بضع خطوات، أما هي فقد ثبتت عيونها الخضراء على عيني ولم تزحزح تلك الابتسامة المستفزة إطلاقًا، رحتُ أبحث بعيني يمينًا وشمالًا وأقطع ببصري الأرجاء في توتر ظنًا مني أني لربما قد ألمح شخصًا ما في الجوار، حسنا ظننت حقًا في تلك اللحظات أنني قد أحتاج للاستنجاد بأحدهم، إلا أن عيني عادتا خائبتين؛ فأي أبله ذاك الذي قد يتجول في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل! باستثنائي طبعًا.

_حسنا حتى المخبولون يستحقون فرصة، الزمن... ماذا تعرفين عنه يا ماريا؟ هل تظنين أن السفر إلى الماضي أمرٌ مستحيل حقًا؟ يالسخافة يا فتاة! حتى العلماء الأذكياء يقومون بإجراء تجارب لصناعة آلات السفر عبر الزمن، خاصة الروس إنهم متفوقون في هذا المجال...

قالت آخر جزء من جملتها في همس وما لبثت أن أخذت تحرك قدميها وتتمشي حولي سائرة بضعة خطوات نحو الأمام قبل أن تكمل كلامها قائلة:

_الثقوب السوداء... نظرية الأوتار... أظنك سمعت عن إمكانية استخدام هذه الأشياء للسفر عبر الزمن، وإن كان العلماء قد توصلوا إلى طريقة علمية فعلًا تمكنهم من السفر إلى المستقبل ولا ينقصهم سوى مركبة تسير بسرعة الضوء لإحياء فكرتهم، هل سيكون التوصل إلى طريقة للسفر إلى الماضي أمر مستحيلًا حقًا؟ الزمن أولًا وأخيرًا يا عزيزتي هو مخلوق من مخلوقات الله، مثله مثل كل المخلوقات على هذا الكوكب، لما لا أكون محظوظة بمعرفتي لطريقة تمكنني من جعله يطاوعني؟ لما لا أساعد الناس بتلك الطريقة؟ إذًا ...

سكنت حركتها وبدت أنها قد ختمت حديثها وبقيت واقفة كما لو أنها تنتظر إشارتي أو موافقتي، كنت أشعر بالغرابة وقد بدا كلامها منطقيًا من جهة ومنافيًا للمنطق من جهة أخرى، طال بي التفكير و امتلأ قلبي بالحيرة لكن وفي النهاية كان شيء واحد فقط هو الذي بإمكاني أن أصبح متأكدة منه...إن امتلكتُ ولو بحجم حبة أرز فرصة لجعل ذلك الحادث يختفي من حياتي فسأكون مستعدة لألتقف تلك الفرصة بكل سرور... ألن يتمسك الغريق بقشة؟

_حسنًا ... أظنني سأمضي معك في هذا.

قلتها وأنا أعبئ رئتاي بالهواء بكل طمع، كما لو أنني أترجى ذرات الأكسجين أن تسارع لتُهدئ أعصابي الثائرة.

في العادة أنا لست ممن يحبون المجازفات، عدم الخوض في غمار المجهول لهو جزء لا يتجزأ مني، مثله مثل الخوف الدائم الذي يحيط بي مسودًا مظلمًا، لكنني في ذلك الوقت وجدت نفسي مدفوعة للموافقة على عرض تلك الفتاة لمساعدتي على الرغم من أن كلامها كان غريبًا، في الواقع جل ما أخافهُ حقًا هو الموت وطالما أنني لن أموت بسبب موافقتي على كلامها فلا بأس... ظللتُ أطمئن نفسي بتلك الجملة مرارًا لكن شيئًا لم يفلح حقًا، وفي النهاية كنت وما زلت خائفة.

_كلامنا سيكون بسيطًا فأنا ليس لدي سوى شرط واحد لمساعدتك، نفذي شرطي السهل ولن تتألمي في حياتك مجددًا، وصحيح... لا داعي لكل هذا الخوف فما نحن بصدد فعله لن يتسبب بموتك.

بدت أذناي كما لو أنهما لم تسمعا سوى الكلمات الأخيرة من جملتها، لقد كانت تعلم أنني خائفة وكانت تدرك مما أنا خائفة وعندها كان بإمكاني أن أدرك أنا بدوري أن الشيء الغريب المتعلق بهذه الفتاة لهو مثير للريبة أكثر مما اعتقدت سابقًا.

_لستُ خائفة.

كذبتُ كعادتي ثم أردفت:

_ما هو شرطك إذا؟

أطلقت همهمة بسيطة ثم تبدلت ملامحها إلى أخرى فائقة الجدية في جزء بسيط من الثانية، اختفت الابتسامة الواسعة التي كانت تلازمها بينما صارت عيناها الكبيرتان أكثر حدة ومع حاجبيها اللذين رسما خطًا شبه مستقيم بدت لي ملامحها الجديدة غريبة... كما لو أنها خليط بين الجدية و... ولا شيء ! الجدية والتعابير الجوفاء فقط.

_سبعة ذنوب، سبعة آثام عليك ارتكابها لأجلي كمقابل لقاء مساعدتي لكِ.

همستْ برقةٍ كما لو أن ما تقوله هو مجرد لحن عذب وليس كلمات نزلت كالصاعقة على قلبي، كانت كل مقاييس الغرابة في ازدياد بالفعل ووجدت نفسي أطلق كل انفعالاتي جنبًا إلى جنب مع غضبي وأنا أحدثها بصوت حاد قد علت نبرته فجأة:

_هل تستهزئين بي؟ إن كنت تتحدثين عن الخطايا فأنا لن أقوم بذلك، هذا مستحي...

_ليس لديك خيار وكلتانا تعلم ذلك.

قالت مُقاطعة إياي بكل هدوء ثم كانت كلماتها التالية كما لو أنها سهام تخترق قلبي وليست مفردات من قاموس.

_ أنتِ ... احترقتِ في ذلك اليوم، إن رفعتي كم قميصك الطويل فستظهر آثار حروق قديمة واضحة للعيان، هذا يجعلك مشوهة ألا تعتقدين؟ جسدك بأكمله هكذا حتى أطراف أصابع قدميك، يا ترى هل تذكرين كم عملية تجميلية قمتي بإجرائها في سبيل إزالة آثار الحروق من على وجهك؟ لقد حصلتي على وجه طبيعي وجميل بعد كل ذلك ولكن جسدك لم يكن من الممكن إنقاذه، هذا مؤسف للغاية، لا

فرصة لمستقبلك ولا لأن تقعي في الحب... كلا بل إنه لا أحد سيقع في حبك بسبب تلك الحروق، الناس تعدها مخيفة يا عزيزتي وأنت تعلمين كل ذلك، لكن هل تعلمين القدر الهائل من المال الذي أنفقه عمك لعلاجك؟ لقد باع بيته وسيارته لأجلك، هذا يمثل سببًا رئيسيًا وراء كراهيته لكِ بالمناسبة.

أطلقت ضحكة خافتة ثم اخترق نظرها عيني بقوة وهي تواصل كلامها:

_مستقبلكِ تدمر منذ ذلك اليوم، في تلك اللحظة التي تركك فيها والدك تحترقين محبوسة داخل السيارة وقام بإنقاذ ابنة عمك فقد انتهت الآمال بالنسبة لكِ، أنت تخافين من الموت لأنك تتمنين لو أن الأطباء لم ينقذوكِ يومها، لا تريدين أن تتألمي، وفي الواقع أنت متناقضة، تتصارع رغبتا الموت والحياة داخل نفسك يوميًا، ستعيشين باقي عمرك مع عائلة تكرهك وعمة تضربك، لن تحبي ولن تتزوجي مطلقًا، لن تحظى بأي أصدقاء في المدرسة ثم ستستمر حياتك على هذا المنوال... حتى تستجمعي شجاعتك وتقتلي نفسك في أحد الأيام بعد أن تقتنعي بألا فائدة ترجى من انتظار تحسن الأمور، لكن...هل هذا حقًا ما تريدينه؟

" هل هذا حقًا ما أريده؟ "

لم أكن أعرف كيف تمكنت من معرفة كل ذلك لكن كل حرف قالته كان مؤلمًا، حارقًا، وصحيحًا، وأنا في قرارة نفسي أحترق بنيران ذلك الماضي كل يوم، في قرارة نفسي أعلم أن بؤسي وألمي لن ينتهي، في قرارة نفسي أعلم أنني أتوق إلى الموت كما أعلم جيدًا أنني أخافه أكثر من أي شيء آخر، تمامًا مثلما يتوق الإنسان لرؤية ألوان النار المشتعلة الزاهية لكنه يخاف لمسها حتى لا تحرقه، لست إلا جبانة وغبية ولم أكن إنسانة جيدة قط، إن كنتُ بالأصل إنسانة سيئة فلماذا قد أرفض ارتكاب تلك الخطايا؟ أليست الأخلاق للجيدين؟ وأنا لست منهم على أية حال، سأحتضن

سوئي وأرحب بتلك الخطايا إن كانت مفتاحًا لي لأحيا، أجل، أجل فذلك هو سبيلي الوحيد.

_أعلمُ أنك على حق في ذلك، أنا... سأنفذ تلك الذنوب التي تطلبينها، ولكن قبل ذلك يتوجب عليكِ أن تثبتي لي صحة ما قلتيه، أريد أن أرى شيئًا يدل على صحة قدرتك على نقلي إلى الماضي.

_جميل، لكِ ذلك إذًا سأُريكِ شيئًا يجعلك تثقين بي.

في كل يوم يمضى يزداد شعوري بالاختناق، وعندما أطيل التفكير في الأمر غالبًا ما تصل كل الأفكار إلى نهايتين مسدودتين، إما أن أكره نفسي أو أكره العالم ... إما أن أتمنى موت نفسي أو قتل العالم ... فناؤه سيكون شيئًا يشعرني بالخلاص المُجرد، كخلاص الشمس عندما تقرر أن تنفجر لتبتلع كوكبنا، أشعر أنها لطالما أعطتنا نورها وهي حانقة، ودائمًا ما تبدو من وجهة نظري تتوعدنا بصمت ما قبل العاصفة المُريب.

الكلمات التي دارت بيني وبين تلك الفتاة قد جعلتني عازمةً على أذية الناس، الأخطاء تجريد للأذية، والأذية طريق للمعاناة، مثل معاناتي وأنا أحاول التمسك بأمل ملون بلون الأحمر الدموي القاني ... هذا لون جميل ... فكرت في ذلك ...

وعندما همت الساعة مقاربةً الثالثة فجرًا كان جسدي قد تحرك مُتثاقلًا مُقررًا العودة إلى المنزل الذي ارتبط طيفه الظاهر في الأفق بكآبة مقفرة منفرة دائمًا.

_سوف نلتقي قريبًا قرب ذلك النهر، أعلم مسبقًا أنه مكانك المفضل، عندما ترين وجهي في المرة القادمة ستكونين مقتنعة بكل شيء.

تلك الجملة لمعت ممثلةً آخر ما قالته لي الفتاة قبل اختفائها الصامت الغريب، مستمرة بالتردد مرارًا داخل ذهني بدأ الفجر المشرق بالطلوع بينما ظللت متكورة على نفسي تحت البطانية الدافئة وأنا أحتضن وسادتي شاعرة أنني لا أريد أي شيء من هذا العالم عدا البقاء هكذا، النوم كان هربًا من واقعي، وأنا قد عشقت طريقة الهرب تلك، وأردت التمسك بها للأبد دون أن يزعجني أحد، كان القميص القطني الناعم الذي ارتديته قصير الأكمام، مادةً ذراعيّ نحو السقف الأبيض وأنا مستلقية أتأمل بحر أفكاري رأيت تلك الحروق الغائرة القديمة وهي تشوه ساعدي بكل قسوة، لم يكن أي أحد غيري أنا ليتحمل رؤيتها، لكن حتى هذه الأنا تكره رؤيتها، ولطالما همست قائلةً لنفسي:

_يبدو الأمر كلعنة، لكنها سخيفة بكل تأكيد! لا تفكري في ذلك!

لكن تلك الكلمات لم تكن لتستقر في مكان عدا سلة مهملات عقلي، لقد استمررت في التفكير والتفكير ... والتفكير ... حتى غفوت ودموعي التي لم أستطع السيطرة عليها أخيرًا قد بللت وسادتي بالكامل.

_هل هذا حقًا ما أريده؟ هل ما أفعله صواب؟ أصبحت لا أدري!

كان هذا آخر ما تساءلت عنه قبل أن يلتقفني غمام النوم المشرق الذي بدا كحارس ملائكي يمد يده لي هامسًا أنه سينقذني من كل شيء، لكن الشيطان قد قتل ملاكي اليوم وحظيت بنوم مشبع بالكوابيس الحالكة في نهاية المطاف.

...

جالت ذكرى ذاك اليوم في ذاكرتي مجددًا أثناء سيري البطيء بين شوارع المدينة الخالية المحاطة بليل أسود شاهد على كل ما اقترفته، كيف آل بي الحال إلى الموافقة على عرض آسيا؟ كيف آل بي الحال إلى المساعدة في ارتكاب جريمة قتل قبل دقائق؟ لم أجد إجابة إلا أنانية نفسي الصافية المسيطرة التي أدركت مدى كونها خاطئة ملعونة، الخطايا يمكن أن تكون سوداء إلى تلك الدرجة المعتمة! آه يا لها من دموع تلك التي تخنق أنفاسي وتبكيني منتحبة غارقة وسط ذلك الليل، مترجية بضعف ذاكرتي أن تمحو ما اقترفته، خائفة حتى الموت كما لو أن نظرات ذلك الطفل تلاحق روحي لتسلبها، تلكما العينين الطاهرتين الخائفتين.

كانت آسيا بعينيها المتلألئتين ووجهها المبتسم ببراءة زائفة غريبة تنتظرني عند نهاية الطريق مرتدية فستانًا أزرق صافي اسود لونه بفعل حلك الظلام على عكس عينيها اللتين تألقتا بلمعة ملفتة آسرة معتادة.

_لا تبدين بخير.

همست برقة وهي تمد يدها لتلامس جبيني كما لو كانت أمًا قلقة على طفلها العليل، لكنني أبعدت تلك اليد الباردة بحدة وأنا أعض على شفتي لأمنع دموعي الكثيرة من النزول ونفسي الضعيفة من الانهيار بغتة، منزعجةً بصورة لا يمكن تصورها بسبب يد آسيا الباردة تلك خرج مني صوت ألمي غاضبًا مغتاظًا صارخًا:

_لا تلمسيني! لقد نفذت ما قلتي، ساعدت ذلك الرجل في قتل الطفل وتحملت ذلك الذنب القاسي، والآن فلترجعيني إلى الماضي كما وعدتي! أعيدي إليّ حياتي كما وعدتي!

_هُش...

همست وهي تضيق عينيها تزامنًا مع تدفق شلال دموعي المنهمر، وقد بدت آسيا تلك الجميلة الشقراء متجمدة بابتسامة غير قابلة لأن تتزحزح ولا مليميترًا واحدًا، تمامًا كمثال...

_لم تنفذي جانبك من الاتفاق كاملًا عزيزتي ماريا، فما مضى لم يكن إلّا إثمًا واحدًا من بين سبعة آثام معلقة على عاتقك، ففي النهاية موت والديك معلق على عاتقك كذلك...

_إذًا ماذا سأفعل أكثر مما سبق؟ لا أستطيع تحمل المزيد!

_كلا بل أنت مطالبة بالتحمل، فلا زالت الكثير من الجنازات المؤجلة تنتظر قدوم مساعدتك ليتم التخلص منها، لقد أصبحت قاتلة بالفعل ولن يمكنك إنكار ذلك...المساعدة في ارتكاب الإثم تعد إثمًا...لكن العالم الخاطئ مُنجس بالآثام بالفعل.

وبعدما اخترت فراقها وأنا حانقة في صمت كان منزلي أو منزل عمي إن أردنا الدقة يلوح في الأفق القريب، فإنساب جسدي المتسلل عبر النافذة في هدوء، توسدت الفراش بعد تعب طويل، وبينما أتقلب على فراشي الدافئ اليوم فكرت، وبينما أغوص في بحر أفكاري تهت، فقادني كل ما يحدث معي إلى نهايات معروفة تصرخ في أذني أن عليّ الدوس على مشاعري والاستمرار فحسب دون الالتفات إلى برآءة أحد، فالعالم بأكمله خاطئ بالفعل...سمعت أن الرجل الذي ساعدته على تنفيذ جريمته اليوم كان مجرد ضعيف، شخص سقط ضحية لحسد أكل قلبه موجهًا إياه لسلب أسرة سعيدة طفلها وسبب سعادتها، كل شيء أسود وحالك بصورة لا تطاق، لقد تمنى زوال نعمة تلك الأسرة وانتهي به المطاف بسلبها بيديه، وكذلك انتهى بي المطاف بمساعدته متبعةً أنانية قلبي التي لا تطاق تمامًا مثل سواد كل شيء.

الفصل الثاني

«خطيئة الجسد»

أثناء سيري نحو المدرسة وأنا أشق برد الشتاء وريحه مرت على بالي ذكرى اليوم الذي دفعني للاستمرار في مجاراة جنون الأحداث الحالية وتصديق فكرة إمكانية السفر إلى الماضي التي تبدو برمتها ضربًا من خيال لا ينفع، ففي ذلك الوقت جالت الأفكار عبر جسدي الهزيل وأنا أرتجف، توسعت عيناي وانسكبت دموعي عاجزةً عن النطق من شدة صدمتي وارتعاشي، فسارع قلبي الضعيف نبضاته لتنطلق مندفعة إلى ما لا نهاية، منصدمة بسبب أمي التي كانت هناك مجددًا وتبتسم لي، لقد كانت أمي الميتة واقفةً هناك...

لم يكن هنالك ما يمكن أن يُطلق عليه حُلمًا وإنما كان كل شيء واقعيًا إلى تلك الدرجة التي تبدد كل الأوهام، الشمس الدافئة التي تغرب مودعةً العالم كانت ترمقنا بنظرات وداعها الحزينة وهي تغادر هذا اليوم بغروب مضيء، تلك الأشعة التي تخترق زجاج النافذة تدخل بقوة لتنعكس على وجوه الموجودين كلهم معطية عيني أمي الزرقاوين لمحة برتقالية ذهبية مذيبة كل برد يكتنف صدري، بينما تُلوِن شعر والدي الأسود لتجعله يميل نحو لونٍ خشبي باهت برفق، وبرزت حدود ابتسامته السعيدة بلون الشفق الآسر.

لقد رأيتهم هكذا ثم بكيت...بكيت مشتاقةً منهارةً خائرة القوى وحائرة الأفكار، وعندما هرعت أمي ناحيتي سارعت محتضنةً جسدي الصغير بين يديها الناعمتين وبدا حضنها الذي يفيض دفئًا والذي كنت أحلم به منذ سنين كقطعة نعيم من الجنة، كمأوى أبدي طال بحثي عنه، وكل ما أضحيت راغبةً به الآن هو التمسك به مرة وإلى الأبد، ولم أكن مستعدة مطلقًا لإفلات جنتي مجددًا...

جسدي كان صغيرًا جدًا، حتى جسد طفل في الربيع السادس لن يقاربني الصغر، وبحلول الوقت الذي أدركت فيه أنني بالفعل داخل جسد نفسي الماضية الصغيرة كان عمي وعائلته الذين صرف وجود والديّ انتباهي عنهم يشرعون في التذمر بشأن صوت بكائي العالي الذي مثَّل عندهم كل معاني الإزعاج، هل كنت أبكي؟ ألم أتوقف عن البكاء عندما غصت في حضن أمي؟ أدركت توًا أنني لم أفعل! لقد استمريت بالبكاء الذي يدفع وتيرته للازدياد بشدة كلما رمقني والداي بنظراتهما المتسائلة المضطربة أثناء عجزي الفظيع عن إخبارهما بالحقيقة ... أردت أن أعبر لهما عن شوق يغمرني وحزن يقتلني ووحدة تمزقني إلى أشلاء، أن أقول "هذه مشاعري!" بصوت عالي، وتلك الرغبة... تلك الأمنية في ألا أفارقهما مرة

أخرى كانت تنهش صدري، قوية لتلك الدرجة التي لم يكن يهمني معها حتى البقاء محبوسة داخل جسد هذا الطفل الذي لم يكن إلا أنا البالغة من العمر ست سنوات، لم أكن مجنونة في ذلك الحين وكان ما أراه هو قطعة من الماضي، آخر تجمع لي مع عائلتي قبل يوم الحادث اللعين الذي مرت عليه سنين وسنين، وعندما بدا أن وجودي هنا مستحيل مريب أضحى بإمكان كل شيء أن يتضح فقط إذا تذكرت كلام آسيا عن أنها ستثبت لي قدرتها على نقلي إلى الماضي، ووجودي هنا الآن في عيني ما هو إلا أكبر دليل.

بسبب بكائي الذي لم ينقطع هممنا مغادرين منزل عمي، بسبب تصرفاتي الغريبة تلك استمرت أمي في التحدث مهدئة إياي بلا طائل يرجى منه رجاء، وبسبب حمل أمي لابنة عمي الرضيعة التي توجب علينا الاعتناء بها في ذلك الحين فلم يستطع أبي إنقاذي عندما وقع الحادث بغتة كقطعة مسودة من الجحيم الملعون... لو لم أكن هناك وأرجع إلى الماضي لما غادرنا منزل عمي سريعًا انزعاجًا من بكائي غير المقطع... لو لم نغادر لما كان للحادث وجود... ثم كنا لنعيش معًا... فقط معًا...

...

"كنهرٍ ملئ بالقذارةِ تنسابُ حياتي

كرياحٍ مُشبعةٍ باللعناتِ تَقَيَّدت أنفاسي

بضعةُ سنون وبضعةُ قرونٍ تمضي

ويظلُ حاليّ خاطِئًا كما هو خاطئ"

بعد اختفاء تلك الذكرى وأثناء قطعي لطريق المدرسة اليوم مجددًا تنهدت، ذلك جل ما أمكنني فعله، فبعد معرفتي أنني من تسبب بالحادث الذي قتل والداي ودمر حياتي تضاعف لومي لنفسي أضاعفًا لا حدود لها، لقد أضحى تنفيذ تلك الخطايا ونيل مكافأة العودة بالزمن لإصلاح غلطتي واجبًا لن أحيد عن تنفيذه، فلتذهب مشاعري إلى الجحيم رفقة هذا العالم، ألست أنا أكبر مذنبة في هذا الكون على أية حال؟

بينما كانت الشمس قد بدأت بالسطوع موزعةً أشعة ضوئها جاعلةً إياها تنتشر كالسهام مخترقة الغيوم، شققت طريقي وسط جموع الناس، الريح المنعشة التي هبت عابثة بشعري قد أعطتني نوعًا من الشعور بالراحة فوجدت يداي تمتدان

لتضعا السماعات داخل أذني وتطلقا العنان لفكري ليغيب بين أنغام الموسيقى، لطالما كانت الأغاني تمثل المهرب الذي ألجأ إليه لتهدئة فكرى فهي على الأقل تسمح لي أن أغوص في أعماق ذلك الخيال وأشعر بكل كلمة تُقال كما لو كنت أنا من يعيشها، وهكذا خطوت باتجاه مدرستي وأنا ألملم بقايا نفسي وروحي وأردد بخفوت:

_لا ضير أن أهرب من أفكاري قليلًا...سأهرب قليلًا.

لكن ذلك الهروب الذي كنت أتحدث عنه قد تبدد مع الورقة التي وجدتها ساقطة على الأرض ومطوية بنظام جاذبةً انتباهي لأتوقف أمامها محدقة فيها مستغربة من تلك الطاقة المريبة التي تشدني نحوها، فامتدت يدي لأخذها في توجس ورهبة وشرعت بفك طياتها وأنا متلهفة النفس لرؤية محتواها، لكنه لم يكن شيئًا يسعد النفس أو يطرب الروح وإنما كانت كلمات المهمة التالية...توجيهات لأجل القيام بالخطيئة الثانية...

كنت وبطبيعة الحال محطمة جرآء ما قمت به ليلة أمس، لكنني أهيم على وجهي وأكذب على عقلي مطمئنة نفسي ألا منظر أبشع من منظر طفل يقتل أمامك وتكون أنت مساعدًا للجاني، لكن ومن ناحية أخرى فلم أدرك أبدًا أن الأسوأ موجود بالتأكيد وهو حتمًا دائمًا ما ينطوي على بشاعة مضاعفة.

الصف المدرسي كان مكتظًا كالعادة، لكنه جسد سكونًا مقطوع الصوت على غير العادة، وبينما كان الأستاذ "سامر" منهمكًا في شرح درس الكيمياء مع تعبير غاضب التصق بمحياه فقد زاد من ذلك التعبير حدة فور أن لمحني مقتحمة لحصته بدون طرق الباب حتى، ومتأخرة عن الدرس الإضافي الذي كنت قد نسيت أمر وجوده بسبب كل ما حدث وسوف يحدث...

_ماريا عبد العزيز أين كنتِ حتى هذه الساعة؟

قالها بوجه يختزن بين طياته غضبًا عميقًا تزامنًا مع الهمسات الموسوسة التي انطلقت بخفوت من بين أفواه الطلاب.

_ أعتذر أيها الأستاذ، أنا فقط، أنا نسيت أمر الحصة الإضافية.

قلتها بتلعثم ووجهي يحمر خجلًا بينما تركز عيناي على الأرض وتحاول نفسي جاهدة ضبط انفعالاتها، ولقد كنت أرجو من أعماق قلبي أن يلتزم الأستاذ الصمت

وألا يتحدث أكثر، لكنني كنت أعلم أنه لن يفعل وفي النهاية هم بضرب الدرج الذي أمامه بقبضة عنيفة وصرخ بصوت خرج متعصبًا منفعلًا قائلًا:

_ متى سأرتاح من هذا الغباء! ألا يكفي أنك فاشلة في الدروس وتريدين الحضور متأخرًا أيضًا، اسمعي يا ماريا أقسم بأنك إن تعذرتِ بهذا العذر الواهن وتأخرتِ عن حصتي بكل وقاحة مرة أخرى فلن ترى يومًا آخر جيدًا في هذه المدرسة، لم يعرف والداك كيف يربيانك حتى! إلى مقعدك في الحال!

لقد كنت أرتجف وأشد قبضتي جاعلة الزي المدرسي يتجعد بين كفى، أمسكت بدموعي وكافحت لأتحرك دون إبداء ذلك الخوف، كافحت لأتجاهل كلامه عن والداي، كافحت حتى لا أصرخ في وجهه وأخبره أنني لا أمتلك والدين، وفي النهاية بدا للكل أنني لم أتأثر بصراخه ولا قليلًا الشيء وأنني أسير نحو مقعدي بكل هدوء، هدوء مصطنع سرعان ما تلاشى عند تلك اللحظة المفاجئة التي اصطدم فيها رأسي بحافة الدُرج ولم أعد أرى أمامي سوى لون أحمر قاني، تعثر قدمي وسقوطي باتجاه ذلك الدرج فجأة لم يكن صدفة؛ لقد كان تعمدي لذلك يثير اشمئزازي فعلًا.

لقد كنت أبكي، ليس لأن الجرح الذي أصاب جبيني لم يتوقف عن النزيف وإنما بسبب غضبي وضعفي، كان الجرح شبه مخدر ولو لم أرى الدماء التي سالت لما كنت قد أدركت أنني جرحت نفسي بذلك السوء أصلًا، لكن ذلك أعطاني عذرًا ممتازًا لأسمح لدموعي بالخروج...فبكيت بانفعال وضعف كغيمة صغيرة تتبدد ويداي ترتجفان ولم أتوقف عن ذلك حتى انتهت الممرضة من خياطة جرحي.

_ ثلاث غرز، في الغالب سيترك هذا الجرح ندبًا على جبينك عزيزتي، هل أنتِ بخير؟!

قالت الممرضة ذلك وهي تبتسم لي برقة، لقد كانت تمتلك شعرًا أسودًا قصيرًا وعيونًا بنية حنونة أشعرتني بالدفء، ولم تكن تعاملني كما لو أنها تعامل حيوانًا ما وإنما غمرتني بلطف محمول في نبرة صوتها، وعندما شعرت بكل ذلك أخفضت رأسي نحو الأرض وهززته بمعنى "نعم" وظللت صامتة، لقد قامت بتنظيف الدماء عن ملابسي وتجفيفها سريعًا وكنت حامدةً لأن الدماء التي سببها الجرح قد لوثت فستان المدرسة الأزرق دون أن تطال القميص أبيض اللون الذي نرتديه أسفله، بعد نصف ساعة أو أقل كنت أشعر أنني بخير وأنتظر أن يأتي الأستاذ سامر ليوقع على الأوراق الطبية ويسمح لي بالعودة إلى المنزل، وعندما

دخل هذا الأخير إلى العيادة أخيرًا وجدت أن تعابير وجهه الصارمة تلك لم تتزحزح مطلقًا، وقد بدا مع عينيه الضيقتين وحاجبيه المتجعدين كشخص غاضب لا يجب التحدث معه مطلقًا.

_ ماريا، أعطيني رقم والدك حتى يأتي ويأخذك من هنا، لن نسمح لكِ أن تعودي إلى المنزل على هذه الحال وحيدة.

عندما أدركت أن الحوار موجه إليّ وأنني لا أستطيع التهرب اضطررت إلى أن أرد قائلة:

_ لا بأس يا أستاذ أستطيع العودة وحدى.

_ لن يكون ذلك جيدًا عزيزتي! أنتِ صغيرة وهذه الإصابة قد تسبب الألم لكِ في حال زال تأثير المخدر، يجب أن يرافقك والدك لسلامتك.

هكذا تحدثت إليّ الممرضة بصوت خافت حنون جعلني أرفع ناظري لأحدق في عمق عينيها البنيتين اللتين تذكرانك بكوب قهوة صباحي دون إضافات، إنه دافئ ولطيف تمامًا مثلها، وطبيعتها الآسرة هذه هي ما جعلني أفتح فمي وأتحدث بلا خوف قائلة:

_ والدي ليس هنا، أعتقد أنه يمكنكم الاتصال بعمي.

_ همم.

همهم الأستاذ ثم شرع بتسجيل رقم عمي والاتصال به، لم يكلف ذلك العم نفسه حتى عناء الحديث مطولًا وإنما جاء رده مقتضبًا حانقًا:

_ أريدك أن تتفهم أيها الأستاذ طبيعة عملي، أنا لا أستطيع ترك عملي والقدوم لأخذها! زوجتي في المنزل مريضة كذلك ولن تستطيع أن تأتي، إن كانت ماريا تستطيع السير فلتأتي لوحدها هي ليست طفلة على كل حال.

ثم أغلق الخط ... هكذا بكل بساطة ... من دون أن يقلق عليّ ولا أن يهتم بي، هذا ما كنت أتوقع حدوثه على أي حال، اكتفى بتلك الكلمات الغير مبالية تاركًا الأستاذ سامر يتنهد بضيق، بدت الممرضة متضايقة كذلك إلا أنها تداركت تعابير وجهها وسرعان ما رسمت ابتسامة عريضة وهي تنهض من على كرسيها وتوجه إلينا كلماتها قائلةً:

_لا تقلق يا سامر، اسمع أنا سأوصلها إلى منزلها بنفسي.

لم يبدُ أن الأستاذ مستاء من أسلوب حديثها العفوي إطلاقًا وإنما تراخت حدة تعابيره واستطعت أن أراه يرسم ابتسامة طفيفة على محياه وهو يومئ برأسه ويقول:

_هذا سيكون جيدًا، يمكنك الذهاب وأنا سأحرص على أن أعيد ليلى من الحضانة بدلًا عنك.

_شكرًا على ذلك!

قالتها كما لو أنها تحدث طفلًا صغيرًا لكن الأستاذ كان قد اندفع خارجًا بالفعل دون أن يهتم، غريب أمر هذين الإثنين! هكذا فكرت وأنا أجدل شعري بصورة بدت فوضوية تمامًا استعدادًا لمرافقة الممرضة خارجًا، ما فاجأني في حقيقة الأمر هو الحجاب الأبيض الذي غطت به شعرها الناعم في ذلك الحين بينما لم تكن ترتديه أمام الأستاذ سامر! فقد كنت أحسبها غير محجبة، وعندما كثرت تساؤلاتي ولاحظت الممرضة تحديقي المستمر بها أطلقت ضحكة خافتة كما لو أنها قد فهمت ما كان يدور في نفسي مما دفعها إلى القول مبتسمةً:

_قد يبدو الأمر غريبًا بالنسبة للبعض لكنني والأستاذ سامر متزوجان، ليلي هي طفلتنا الصغيرة! لربما كنت تتساءلين عن سبب عدم ارتدائي للحجاب عندما كان معنا قبل قليل.

_في الواقع نعم...كنت أتساءل عن ذلك.

كنت مستغربة حقًا ولا أستطيع الفهم أبدًا، كيف يمكن لشخص لطيف مثل تلك الممرضة أن تتزوج شخصًا حاد الطباع كالأستاذ سامر! أردت من يفسر لي ذلك لكنني عندما فكرت في أعماق نفسي أدركت أن الإنسان كائن عجيب حقًا، فأنا مثلًا على وشك رمي هذه الممرضة اللطيفة بين أنياب الوحوش، أليست الأمور الغريبة هي تلك التي ترتكبها النفس البشرية دائمًا؟

_أنت في الصف الأول صحيح؟ لا تزالين في الخامسة عشرة!

هكذا قالت لي بينما كنا نسير في الطريق نحو منزلي، لقد كانت اجتماعية وثرثارة نوعًا ما، لطيفة كشعاع فجر دافئ، وبالرغم من أنني لم أكن أحب الأسئلة الشخصية كتلك لكنني ولسبب ما وجدت نفسي مغمورة بشعور من الارتياح يدفعني دفعًا لمجاراتها في حديث كان الأول من نوعه الذي أستمتع به منذ زمن طويل!

_نعم، لازلت في الخامسة عشرة من عمري.

_أتعلمين! إن سن الخامسة عشرة سن جميلة جدًا، في الواقع عندما كنت في هذه السن استطعت تحديد حلمي لأول مرة، لقد اندفعت نحوه بصورة فاجأتني أنا شخصيًا! وبالرغم من أنني قد حققته الآن وأصبحت ممرضة إلا أن ذكريات الماضي تبدو مضحكة حقًا!

_مضحكة؟!

_نعم، نعم بالطبع! عندما تتجاوزين سن المراهقة ستصبح كل الأمور الطائشة التي قمتي بها واضحة وتتابعك كظلك، لكنها أمور تافهة في الأغلب.

لكنها لم تكن كذلك...تلك الأمور التافهة هي أرواح تُسلب...

_مثل ماذا؟

_مثل ماذا؟! ... دعيني أتذكر...ها! مثل الحب مثلًا، أذكر أنني كنت في السابعة عشرة من عمرى عندما تعرفت على سامر الذي كان صديقًا مقربًا من أخي الأكبر...لقد كان من أول الأشخاص الذين اعتبرتهم مستفزين نظرًا لحدة طباعهم لكنني لاحقًا عندما اكتشفت أنه يخفى خلف هذا القناع من القسوة والحدة شخصًا طيبًا يخاف على الأخرين أيقنت أنني قد وقعت في حبه على الفور! لقد كانت أحكامي المسبقة تلك عبارة عن تهور كارثي!

"إذا كانت الأحكام المسبقة مجرد تهور كارثي فأنا أتساءل، كم من الأشخاص قد أطلقت عليهم ذاك التهور الكارثي؟!"

لكن حتى أنتِ أيتها الممرضة تطلقين أحكامًا مسبقة، مثل افتراضك بأنني شخص يمكنك الوثوق به...

الشمس المنصفة لسماء هذا الشتاء بدت دافئة ومشرقة لدرجة تجعلك ترغب في البكاء، خطواتنا التي كان من المفترض أن تقودنا نحو منزلي قد تعمدتُ جعلها خاطئة مضللة، فذلك الاتجاه الذي سلكناه والذي لم تشك فيه تلك الممرضة ولو لثانية قد كان هو المكان المخصص للقاء، هنالك سنلتقي برجلين وستسلب حياة تلك الممرضة مرة وإلى الأبد.

يفاجئني ذلك البرود الذي أتحدث به، يفاجئني صدى ضحكاتي الخافتة الصادقة أثناء تبادلي للحديث مع تلك الممرضة وأنا أقتادها نحو حتفها، ألا يفترض أن أكون أكثر فزعًا؟ أكثر...شعورًا بالذنب؟!

_كل ما أريده من هذه الحياة هو أن أكون بجانب طفلتي الصغيرة، في الماضي خسرت والدتي في سن مبكرة ولأنني كنت أبكي منذ الصباح وحتى الغسق فلا أريد لابنتي أن تمر بذلك الشعور، أريد أن أحتضنها كلما فاضت دموعها، أرغب دائمًا بأن أكون هناك، حتى أخي الصغير قد توفي ليلة أمس، لكم يسعدني حديثي معك ويجعلني أنسى ألم فراقه، فأنا لا زلت حانقة على إدارة المدرسة الصارمة التي منعتني من أخذ إجازة من العمل، لكن هكذا الحياة نحن لا نستسلم للحزن وننتظر أن يقتلنا بدوره صحيح؟!

تبتسمين وألم الفراق يعشعش داخل دهاليز قلبك المكسور، بينما يتردد صدى ضحكاتك عذبًا معسولا، لكم نحن مختلفان ولكم من فشل واكتئاب تختزنه نفسي الضعيفة، أنا أيضًا رغبت في أن تكون أمي هناك، لكنها لم تكن، واليوم لقد كنت السبب في أنك لن تكوني، لذا أنا آسفة، آسفة على أنانيتي.

الزقاق المظلم كان مسرح الجريمة، وبلا وجود شاهد أو عاقل كان سهلًا عليّ استدراج الممرضة لدخوله باستعمال حجة واهنة، وانتهى الأمر برجلين ضخمين وهما يسحبان الممرضة التي ضرباها حتى فقدت الوعي ويرمقانني بنظرات متشككة.

مِن طرف آسيا؟

نطق أحدهما فهززت رأسي إيجابًا ثم أدرت جسدي وباشرت التحرك، بدون وجهة كما لو أنني أسير إلى نهاية العالم، وفي تلك اللحظات التي امتدت فيها يدي لتتحسس الضماد الطبي الذي أضحى الدليل الوحيد على وجود تلك الممرضة في حياتي مرة...فاضت دموعي وانتحبت كالمجنون.

الفصل الثالث

«الخطايا خطايا»

_متى ضربتِ رأسكِ هكذا؟

صرخت عمتي وهي تنقل بصرها بين وجهي وبين الساعة الجدارية التي تشير إلى الثامنة مساءً، لكن نظراتها الغاضبة قد جعلتني أخمن سريعًا مما هي غاضبة هكذا.

_الوقت متأخر، أين كنتِ؟

_أتمشي.

همست فاستمعت إليّ وهي تضيق عيونها قاتمة السواد وتهم بالصراخ منفعلة:

_مَن أعطاكِ الإذن لتتمشي أصلًا؟ لقد كررت كلامي ألف مرة قبلًا، من المدرسة إلى المنزل ومن المنزل إلى المدرسة فقط!

_لماذا؟ ألا يحق لي حتى الخروج قليلًا؟

_لا يحق لك! الفتيات قليلات التربية والأصل لا يحق لهن الخروج وإلا جلبن العار لسمعة أهلهن!

أردفت وهي تزمجر غاضبة وبدت كما لو أنها تحدث ألد أعدائها وأبغضهم لكن كل ذلك لم يكن كافيًا بالنسبة إليها إذا أضافت وهي تحرك يديها في الهواء منفعلة:

_أقسم أنك قليلة أصل وتربية، لم أعرف كيف أقوم بتربيتك! في النهاية كل شخص يشبه والديه!

_لا دخل لوالدي في حديثنا! لقد كانا أشرف منكِ!

صرختُ بغضب وتطايرت دموعي غير قادرة على الاحتمال، فبرزت عروقها غضبًا ولم أجدها إلا وهي تلعنني وتطلب مني أن أصمت لكنني لم أكن لأفعل! لقد تعبت من الصمت!

_أنتِ فعلًا لم تقومي بتربيتي، أنت لم تفعلي لأجلي أي شيء على الإطلاق!

_يا قليلة الأدب ...

لم تنتظر حتى أن تكمل جملتها إذ اندفعت نحوي بكل غضب ودهون وزنها الزائد تعارض ركضها بثقل، وما لبثت أن أمسكت بشعري وسحبته بين كفيها لتحرقني تلك اللحظة شاعرةً بأنها تقوم باقتلاع فروة رأسي بين يديها، تلويت وأنا أحاول الإفلات من قبضتها ولكن جسدي الهزيل ضعف أمام جبروت قوتها ووزنها الضخم، أفلتت مني أنات ألم شديدة وأنا أرمقها بحقد وعيوني الضعيفة تفيض

دمعًا، لم تكتفي بذلك وإنما أطلقت سبًا وشتمًا وهي تنزل بكفها الكبيرة على وجهي لتصفعني بقسوة، أحسست بأن فكي قد فُصل من مكانه كما لو أن عظامي قد تهمشت ... صفعة ثم أخرى ... ثم أخرى أيضًا حتى شعرت بأن قدماي ما عادتا تحملانني فتهاويت أرضًا وسط صفعاتها التي رمتي بقوة لتجعل جسدي يصطدم بالأرض ويستكين كمن سُلب الحياة ...

_أنتِ كالحيوانات ... يا ليتكِ كنت ميتة مثل أهلك أيتها اللعينة، وتردين على كلامي بلا حياء أيضًا؟ مَن يعلم لربما هنالك من يعلمك ذلك!

قالت ذلك ثم بصقت عليّ واستدارت لاهثة من التعب متحفزة من الغضب مُتجهة نحو باب غرفتها تاركة جسدي المحطم غير قادر على النهوض.

كنت ولسوء أيامي في موقف لا أحسد عليه، دائمًا ما ينتهي أي شجار أفتح فيه فمي بتعرضي للضرب، لذا فقد تعلمت أن صمتي بمثابة شهادة حفاظي على جسدي باردًا دون صفعات، لكني في هذا اليوم فضلت الرد وبدا الأمر كما لو أنني أبحث حثيثًا عمن يعاقبني، كما لو أن ما اقترفته يداي من خطايا دفع نفسي التائهة لتتوق لمن يعاقبها علها تكفر عن حيوات فُقدت، لكن لا تكفر الأنفاس إلا بالأنفاس ولا يرد ثمن الحياة إلا الحياة.

تحرك المفتاح عبر القفل ليديره مغلقًا الباب الذي استندت عليه وأنا ألتقط أنفاسي بتعب، غرفتي الصغيرة التي مثلت مهربي الوحيد لمرات لا تحصى لم تعد بالنسبة لروحي اليوم إلا كقفص يحبس داخله عصفورًا كئيبًا، كئيبًا جدًا...

بتثاقل كبير نهضت واقفة، طوقت جسدي بيدي كما لو أنني أحتضنه مواسية، ثم سرت باتجاه الحمام لأغسل وجهي بمياه باردة طمعًا في أن تمحو قطراتها همومي المتراكمة، ارتديت ملابسًا سوداء تنم عن ما يختلج نفسي من شعور، ثم رفعت شعري باستخدام ربطة مطاطية غير آبهة حقًا لفوضويته أو لمنظره، كانت الساعة تقارب من التاسعة مساءً... عمي لا يزال في العمل... الظلام الذي يكتنف المدينة تبدد بفعل قمر مكتمل أبيض متلألئ... وفي وسط كل ذلك فتحت نافذة غرفتي لينساب جسدي النحيف مارًا عبرها بهدوء... ثم هربت من المنزل، هربت شاعرة بأنني عصفورة حرة حُبست طويلًا... متوجهة إلى حضن ذلك الليل عليل النسيم.

_ماذا يعني العيش بدون أخطاء؟ ماذا تعني الحياة؟ هل سلب الأرواح حقًا بذاك السوء؟ ما قيمة الروح والجسد إذًا؟

كنتُ أتساءل بينما أسير معبئةً رئتاي بهواء الليل الرطب، إن عشنا بدون أخطاء ألا يعني ذلك ألا نعيش؟ ألا يعني أن ندعي المثالية ونسعى لننالها ونستميت لأجلها بينما هي في الحقيقة مجرد وهم، وهم يقيد الحياة لا غير...لكن إذا كان لا بد من الأخطاء فما هو العقاب إذًا؟

شوارع مدينتنا الصغيرة لم تكن مكتظة بالناس الذين كان الابتعاد عنهم سهلًا بطبيعة الحال، أعبر ثلاثة شوارع ثم أسير قاطعةً ملعب كرة القدم الرث لأنفذ من خلال بعض الأشجار ويطل الطريق القديم الذي يبرز من خلفه النهر المتلألئ بلمعة باهرة أخاذة تتباهى بحلة انعكاس البدر فوقها، سامحًا للجسر الحجري أن يلقي عليه ظلال سوداء بدت كتظليل فنان محترف للوحة حزينة بهية، لقد كان هنا مكاني الذي أحب.

وبينما أتقدم خطوة خطوة وأرمق المياه المتدفقة بذهن منشغل لمحت بطرف عيني كيانًا واقفًا تحت ظل الجسر الكبير والذي سرعان ما تقدم بضع خطوات نحو الأمام ليلقي عليه ضوء القمر النور اللازم لرؤية تفاصيله المُخفاةِ ليتضح أنه لم يكن إلا الفتاة التي أسقطتني في فخها والمدعوة آسيا، الفتاة المجهولة المريبة التي تعلم كل شيء عن حياتي بطريقة غامضة.

_لقاء هادئ أليس كذلك؟

همست بينما تجمدت ساقاي غير قادرتين على الحراك.

_ماذا تريدين هذه المرة؟ وإلى متى عليّ ارتكاب مزيد من الأفعال الشنيعة لأجلك؟

ابتسمت برقة وهي تحرك كفيها لتغوص بهما داخل جيوب معطفها الأسود طالبةً الدفء وهمست:

_أنت لا ترتكبين تلك الخطايا لأجلي، أنتِ تفعلين ذلك لأجل نفسك وأنانيتك، ألا تودين استعادة ما ضاع منكِ؟

_ولكن إلى متى؟!

صرختُ منفعلة تزامنًا مع توقف خطواتها على بعد مترين أو ثلاثة من مكان وقوفي وإذ بها تميل برأسها نحو اليسار قليلًا وتطلق ضحكة عالية جمدت الدم في عروقي بلا سابق إنذار لتدفعني للصراخ عليها بينما أعتصرُ قبضة يدي بشدة:

_ما هو المضحك في الأمر؟!

_لا شيء.

قالتها بتعابير بدت متصلبة فجأة ثم أردفت:

_هل تعبتِ؟ هل أختصر عليك مشوار المساعدة في ارتكاب الخطايا السبعة؟

_تحدثي مباشرةً!

_حسنًا... حسنًا اهدئي عزيزتي العصبية فنحن هنا لنتحدث بهدوء لا أكثر...

شعرت بالرعب لدى رؤيتي ليدها المخبأة داخل جيب المعطف تمتد خارجةً حاملة سكينًا متوسطة الحجم لامعة النصل كما لو أنها صنعت خصيصًا لتتعطش للدماء، وبشكل احترازي تراجعت خطوتين للخلف وأنا أرمق تعابير وجه آسيا الجامدة بنظرات مذعورة لتنطق الأخيرة قائلةً:

_فلتقتلي يا ماريا... هنا والآن عليك قتل شخص واحد فحسب ولن تكوني مضطرة لتلويث يديكِ أبد الدهر بعد ذلك، ستجتمعين بوالديك ولن يظل جسدك مشوهًا... عندها ستعيشين يا ماريا!

كنت مصعوقة صامتة عاجزة عن النطق من هول المفاجأة، فأنا وحتى هذه اللحظة لم أقم بتلويث يدي مباشرة قط، كنت أنا من ساعد الجاني في تقييد الطفل الصغير وشهدت مقتله دون أن أحرك ساكنًا لكنني لم أكن مَن قتل...كنت أنا من أوصلت الممرضة إلى ذلك المكان حيث تم اختطافها والاعتداء عليها لكنني لم أكن أنا الخاطفة...لم أكن مجرمة بشكل مباشر قط...

_كلا بل أنت مجرمة، وبشكل أساسي وجودك هو ما تسبب في أذية هؤلاء الناس، ذلك الطفل مات وفقده والداه بسببك، تلك المرأة أُختطفت وتركت كل من زوجها وطفلتها محطمين، كيف تفسرين تدمير حياة كل هؤلاء؟

_كلا أنا لم أتسبب في شيء مباشر أنا...

_هُش...يا عزيزتي أنتِ السبب، أنت الخاطئ والسيئ، أنت الشاهد الجاني والمجرم القذر، كله ذنبك وإثمك وحتمًا ثمن كل خطأ عقاب ولكن...ولكن العيش

بسعادة على حساب أذية الآخرين ليس جريمة، ليس خطيئة، كل أولئك الناس عاشوا سعداء وكانت حياتهم ستنتهي بمأساوية بشكل أو بآخر، لا ضير أن يكون وجودك تلك المأساة ولا خطأ في أن تكوني الشخص السيئ في القصة...ففي النهاية ماذا تعني حيوات الآخرين مقابل سعادة نفسك؟

أنا ملوثة... ملوثة من رأسي حتى أخمص قدمي وغارقة في الوحل، لا ضرر أن أتمرغ أكثر ثم أصعد فوق رؤوس الناس لأرى النور، وأثناء صعودي سأدوس عليهم وسيغرقون بينما سأمسك بالضوء، سأذوق السعادة أخيرًا...ولكن قبل ذلك سألوث يدي مرة أخيرة فحسب، الأخلاق للجيدين وأنا لست منهم على أي حال، ألست أنا من قبل بخطاياه وهم محتضنًا السوء الخاص به ومرحبًا به!

" كنهرٍ ملئ بالقذارةِ تنسابُ حياتي

كرياحٍ مُشبعةٍ باللعناتِ تَقَيَّدت أنفاسي

بضعةُ سنون وبضعةُ قرونٍ تمضي

ويظلُ حاليّ خاطِئًا كما هو خاطئ"

_لمرة أخيرة فحسب ... لمرة أخيرة فحسب سأفعلها.

...

الحياة ليست سيئة تمامًا إلاّ أنها تمتلك سخافة ظاهرة بعض الشيء، إنها سخيفة لتلك الدرجة التي تجعلني راغبًا فقط في الضحك، وبسبب كل تلك السخافة التي تختزنها طيات الأيام فقد قررت العيش وفق نهجي الخاص وأسلوبي المنطوي على صب جل اهتمامي على لحظتي وحاضري دون قلق، دون توتر أو خوف مطلقًا، وبسبب أن عواقب الأفعال تندرج ضمن مستقبل قررت تجاهله فأنا لم أكن لأفكر فيها مطلقًا، ولهذا فأنا مندفع، قويٌ يجد نفسه مرميًا وسط شجارات معقدة أغلب الوقت... وهذا اليوم مكتمل القمر لم يكن ليكون استثناءً.

كان وجهي والذي تلقى لكمتين متتاليتين ينبض بألم شنيع وكنت متأكدًا من أن مكانًا ما من جسدي المنهك كان ينزف بشدة، لكن ولشدة انشغالي بمحاولة رد الهجوم على أولئك الفتيان الذين كانوا يضربونني فلم أستطيع تحديد مدى سوء إصابتي، ضغطت على أسناني بشدة ورميت قبضتي لأضرب بها منتصف معدة

أطول شاب منهم إلاّ أنه لم يتزحزح قيد أنملة وقبل أن تسنح لي الفرصة لأُبدي تفاجؤًا بشأن هذا كان مرفقه الضخم قد سارع مصطدمًا بمنتصف ظهري ليحتضن جسدي الأرض ساقطًا بقوة مُحطِمة، لقد كانوا أربعة يكبروننني سنًا، وحينما أُنهك جسدي المريض لم تعد مقاومتهم تجدي نفعًا وفي اللحظة التالية كان السواد يحجب بصري ويتلاشى إحساسي بكل حواسي سامحًا لي أن أشعر فقط بفقدان الوعي الذي أخذني بعيدًا.

_هل أنت ميت؟

سألني صوت رقيق بدا قادمًا من أبعادٍ بعيدة سرعان ما هم مقتربًا وهو يقول:

_نوح عمر عبد الرحيم، ألا يجب أن تكون في المنزل الآن؟

في تلك الثانية التي نطق فيها الصوت بإسمي صعقتني المفاجأة لتلك الدرجة التي مكنتني من فتح عيني أخيرًا لتسرع رؤيتي الضبابية بالإتضاح رويدًا رويدًا وأرى صاحب الصوت الذي لم يكن إلا ملاكًا واقفًا أمامي ...

_مَن أنتِ؟

سألتها ولساني يأبى الكلام بينما كل ما تفعله عيناي هو التعلق بها، لتبتسم تلك الفتاة الشابة ذات الشعر الأشقر الحريري وتلمع عيناها ذواتا اللون الأخضر كما لو أنها طفل فرح بعيد سعيد، ثم ما لبثت أن تحدثت قائلةً برقة وهي توسع ابتسامتها النقية:

_اسمي آسيا...فقط آسيا.

_أنتِ جميلة!

همست لها بغباء غصبًا عني، فتلك الجملة التي نطقت بها كانت ستستمر بتعذيبي لو لم أقلها، منتظرًا ردة فعلها الغاضبة تجاه كلامي حدث ما خالف توقعي تمامًا، إذا رأيتها ترجع خصلتين من شعرها نحو الوراء بينما لم تتزحزح تلك الابتسامة المشرقة ولا بدرجة واحدة وهمت ناطقة:

_شكرًا لكل هذا الإطراء.

ثم ساد صمت غريب المكان فانتهزت فترته لأحاول النهوض شاعرًا بأن كل عظمة من عظامي كانت تئن بخفوت، كان الضرب المبرح الذي طرحني أرضًا قد خلف وراءه كدمات عديدة بصعوبة استطعت القيام مع وجودها، بينما تلك

الفتاة التي تعرف إسمي بطريقة أجهلها لا تزال واقفة ترمقني بنظرات لا تتزحزح...

_هل تريد رؤية والدتك مجددًا؟

_أمي؟ كيف تعرفين بشأن أمي؟

صرخت متعجبًا من ذاك المنحى الذي اتخذه حديثنا فجأة.

_أنت قتلتها ألم تفعل؟ لقد ماتت أثناء ولادتك وبسبب خطأ طبي سخيف، ألا تتمنى رؤيتها؟

همست وهي تشبك يديها خلف ظهرها فصرخت عليها وأنا أحكم شد قبضتي:

_كيف تعلمين بشأن ذلك؟

_البشر سخفاء، سخفاء جدًا...لا يهمك أن تعلم أي شيء فإن ما أنا هنا لقوله لا يحتاج منك علمًا... اسمع يا نوح، أيها الفتى الصغير المشتاق لأمه، لدى عرض سيعجبك!

_اصمتي لا أريد أن أسمع شيئًا منكِ.

قلتها بحدة وتقدمت خطوة راغبًا في المغادرة لكن قدمي الثقيلة لم تستطع حملي فترنحت في مشيتي واستندت على الجدار البارد.

_أليس والدك طبيبًا؟ أنت لا تحبه صحيح.

قالتها وهي تقهقه بضحكة مستفزة ثم أردفت:

_لدى القدرة على إعادتك إلى الماضي لتنقذ والدتك، سوف أمنحك ذلك مقابل ذنوب بسيطة عليك القيام بها لأجلي، عندها ستعيش!

لقد كانت كلماتها تخنقني، تزيد شعوري بالاشمئزاز مع كل حرف تنطقه، وفي اللحظة التالية التي أتتني فيها فكرة مفادها أن هذه الفتاة قد تكون أُرسِلت من طرف أحد أعدائي الذين ضربوني منذ قليل والذي لربما قد جمع معلوماتي كهذه عني زمجرت غاضبًا بقوة:

_لا أريد أن أسمع مزيدًا من هذه التفاهات! لن أقبل بهذا! أغربي عن وجهي بسرعة.

ثم رأيتها وهي تخطو مبتعدة، تدندن بشيء ما بسعادة تختلجها كما لو أنني لم أصرخ عليها حتى! ثم تهمس لي تزامنًا مع توقفها عن السير قائلةً:

_تمتلك أخًا في العاشرة من عمره وأختًا تعمل ممرضة أليس ذلك صحيحًا؟ حبك لهما هو الشي الثمين الوحيد الذي جنيته من هذه الحياة يا نوح! لكن وبعد بضعة أيام من الآن سيخسر الاثنان حياتهما، سأسلبك أخويك أيها المسكين! وعندما يحصل ذلك ستجدني ليلًا أنتظرك أسفل الجسر القديم عند النهر حتى توافق على عرضي السابق...الحياة مقابل الخطايا هل تقبل هذه الفكرة؟

ثم سارت مبتعدة تاركة إياي متجمدًا كصخرة سوداء، أحاول استيعاب كلامها ثم أضحك على مدى سخافته...تلك السخافة التي تطابق مدى سخافة الحياة أضحت مؤلمة للغاية بحلول الوقت الذي فقدت فيه أخوي حقًا...وبعد ذلك اللقاء المشؤوم كنت اليوم أراقب نصل السكين اللامع الذي أمسكته بين كفى بينما ينعكس ضوء القمر عليه بإشراق غريب وتتقد مشاعري وتغزو الرغبة العارمة في الانتقام فكري وكياني...ها أنا أركض بتلهف...نحو النهر راغبًا في لقاء تلك الفتاة اللعينة واقتلاع ما تبقى من أنفاسها السامة!

الفصل الرابع

«فالتلوث يديك ولتغمرك الذنوب!»

_لمرة أخيرة فحسب...لمرة أخيرة فحسب سأفعلها.

همست موافقة على اقتراحها الذي سوف يعني تحولي إلى مجرمة تلطخ يديها بدماء الأبرياء، لكن وبالرغم من ذلك صرت أتساءل عن كل التغييرات التي ستطرأ على عالمي إن تغير الماضي، ألن يعني وجود والدي عدم تحولي إلى مجرمة من الأساس وعدم لقاء الفتاة آسيا؟ عدم موت أولئك الأبرياء أصلًا؟ حتى مَن سأقوم بقتله ستكتب له حياة جديدة عندما أغير الماضي...ستمحي أخطائي نفسها ببساطة إن تشجعت وارتكبت أكبرها الآن فلا عقاب...

تقدمت آسيا خطوتين باتجاهي وأرجحت في الهواء والى الأمام تلك السكين اللامعة لتستقر الأداة الحادة مغروسة في الأرض ولم يتطلب مني الأمر أكثر من انحناءة خفيفة لالتقاطها، وعندما اقشعر بدني من شدة برودة مقبض السكين هممت بالسؤال لأنجز بسرعة قائلة:

_مَن هو ذلك الشخص الذي عليّ قتله؟

_سيظهر الآن.

همست وهي تبتسم بينما ألقت رموشها الطويلة بظلال خافتة لتحجب بريق بؤبؤها الفيروزي، وفي اللحظة التالية كان هناك نصل سكين طويل يخترق ظهرها من الخلف لتتجمد دماء عروقي فور رؤيتي للمشهد أمامي، لقد طُعنت آسيا بالسكين توًا! ولكن ما سبب ارتجافي بدهشة لم يكن ذلك المشهد وإنما كان شيئًا آخر بالغ الغرابة...لقد عبر النصل متبوعًا بجسد كامل خلفه من خلال جسد آسيا كما لو كان دخانًا، الفتى الذي حاول طعن الفتاة تدحرج على الأرض بينما لم تتزحزح الشقراء قيد أنملة لا هي ولا ابتسامتها الجامدة، وبدا الفتى الذي عبر من خلال جسدها للتو مصدومًا لتلك الدرجة التي جمدت حركته وشلته تمامًا، أما بالنسبة لي فلم يكن هنالك صوت ليعلو على صوت صراخي في تلك اللحظة القصيرة...

_نوح أيها الفتى المسكين، ألم أذكر لك أن لي قدرة على جعل جسدي غير قابل للمس؟ أنا والأشباح نتشابه!

أتبعت كلماتها بضحكات عالية مغمورة بسعادة مفاجئة، وما لبث الفتى أسود الشعر أن هم واقفًا وهو يترنح وشد قبضته على السكين التي يحملها موزعًا نظرات عيونه المشتتة بيني وبين آسيا، وحينها فقد كان حذره المبالغ فيه يفيض عيانًا بيانًا.

_آسيا ... أيتها اللعنة!

_لم تنصفني يا نوح! لست لعنة، اللعنات غير موجودة كما تعلم.

همست آسيا بينما يتراقص وهج انعكاس القمر على مياه النهر المتدفقة خلفها بإشراق ثم أردفت:

_لن تستطيع طعني ولست مضطرًا لذلك، فلا تتعب نفسك، إليك الجاني الحقيقي الذي قتل أخويك...هذه الفتاة.

رفعت إصبعها مشيرةً باتجاهي تزامنًا مع محاولاتي لاستيعاب كلماتها التي سرعان ما أدركت مقصدها فصرخت منفعلة:

_لم أقتل!

_بل فعلتي!.. الطفل الصغير والممرضة، لقد كنتِ أنتِ الشاهد المساعد للجاني! لطختي يديك بالفعل وهذا الفتى هنا لينتقم، لقد قتلتي أخويه. قالت كلماتها بصوت مرتفع ليتابع بصري ذلك الشاب الذي التهبت عيناه بلهيب غضب عارم مخيف، فلم تأتيني تلك الشجاعة لأركض ولا تلك الطاقة لأنطق فبقيت واقفة في مكاني أستمع إلى تلك الضحكات العالية التي كانت تطلقها آسيا بكل استمتاع...

_هل قتلتي أخوي؟

سأل بغضب.

_لم أقتل أنا...أنا كنت هناك فحسب، ساعدت في ذلك فقط.

أجبت بانكسار وتماسكت لأمنع الانهيار، ثم وبدون إنذار كان نصل سكينه الحارق يتأرجح نحوي في هجوم أطلقه الشاب على حين غرة.

لم يكن جسدي ومهما بلغ مقدار بؤسي لينتظر غرس النصل داخله دون استجابة، لكن استجابة دون سابق خبرة كانت عبارة عن سذاجة خالصة تمامًا، للأسف فإنني لم أكن من بين كل أولئك العقلاء الذين سيصرخون بأن الهرب هو الحل الأمثل!

تحركت يداي مستعرضتين السكين التي أعطتني إياها آسيا سابقًا، ثم وفي حركة سريعة كنت قد وضعتها أمامي لتصد دفعة سكين الفتى التي تسرع نحوي بعنف، لقد كانت قوة يديه اللتين تدفعان السكين باتجاهي والتي شعرت بها عندما تلامس نصلانا شديدة للغاية، قوية لتلك الدرجة التي جعلت يدي الضعيفتين ترتجفان

فكان ناتج ضعفي ذاك أن أسقطتني لكمة واحدة وجهها الفتى نحو معدتي لأصير كجثة هامدة بعد أن سقطت على بعد مترين أو أكثر...كنت ولسبب غريب أستشيط غضبًا وقد غمرتني تلك الرغبة الشديدة في إنقاذ حياتي وقتها، ولكن في النهاية كان على حقيقة كوني مذنبة في مقتل الطفل والممرضة أن تنتصر لتهزم أفكاري فتبعث الفتور البارد في كل أنحاء جسدي لأستكين فقط دون حراك شاعرة بالعشب الرطب يستقبلني بكل راحة...

وكأنه نوم على السحاب بدون هموم! فكرت...

في اللحظة التالية لذلك كان الفتى أسود الشعر يرفع سكينه ويستعد لطعن جسدي الضعيف المسكين، وعندما خبا صوت أملي وتلاشت ذرات رغبتي في الحياة استكنت سامحة لذلك الشعور الحارق أن يخترق معدتي بقسوة، لقد كانت السكين العنيفة تغوص في أحشائي وتمزقها ببطء، تنهش وتلتهم ما تبقى من روحي بصمت، وبدت تلك الثواني القليلة ساعات وسنينًا طويلة، وحينما رأيت وجه الفتى متجعد الحاجبين ضيق العينين مختزنًا لأسي فظيع مؤلم أثناء دفعه للسكين داخل معدتي أدركت ولأول مرة أن حياتي كانت سخيفة...عشتها وأنا حبيسة الماضي ولم تكن تلك الحياة هي التي سأكون راضية عنها أبدًا...هل لي... هل لقلبي أن يذوق الحياة؟

"كنهرٍ ملئ بالقذارةِ تنسابُ حياتي

كرياحٍ مُشبعةٍ باللعناتِ تَقَيَّدت أنفاسي

بضعةُ سنون وبضعةُ قرونٍ تمضي

ويظلُ حاليّ خاطِئًا كما هو خاطئ"

لقد كنت في يوم من الأيام أكتب، أكتب شِعرًا لكنه يظل ناقصًا دون قدرة مني على إتمامه مطلقًا، كما لو أن روحي كانت تدرك بطريقة أو بأخرى أن آخر جزء من حياتي ستلتقفه الأخطاء ولن يوجد بعد كلمة "خاطئ" ما سيُكتب، لقد كنت أنا الشيء الخاطئ في هذا العالم ...

روحي التي قبلت بتلك الخطايا تطل قذرة للغاية، ولو كُتب لروحي هذه أن تعيش فسوف لن تتوقف عن ارتكاب مزيد من الخطايا، ستبيح تلك الخطايا وستستمر بالتمسك بالوهم والماضي، بعد التفكير بالأمر فأنا لم أكن أعيش بتاتًا وإنما ظللت

أرغب في أن تعود عائلتي أو أن ألغى وجود الحادث الذي شوه جسدي ونسيت أن الماضي غير قابل للتغير، نسيت أن الذي فات مات وأن ما مضى لا يعاد، نسيت أن أرسم لنفسي مستقبلًا وأبني أحلامًا، وإنما أثمت وندمت، بكيت وتمزقت وظللت أتجاهل كل ما كان يناديني للحياة، تجاهلت النور الصغير الذي كان يحاول أن يطال يدي طوال هذا الوقت.

إن هذا الألم الذي يجعل تلك الارتعاشة الباردة تتسلل إلى أطرافي بقسوة لهو عقاب، عقاب دنيوي يدنو ليستحيل إلى ما هو أشد، لكن ذلك كان حق الكون عليّ، وحق تلك الأرواح عليّ، وها أنا ذي عندما أرى وجه هذا الفتى الذي أضحى يفيض بالدموع ويتقلب وسط مواجع الذنوب والذهول أدرك أن دائرة بدأت بالدوران مرة أخرى، كما لو أنني أرى نفسي في وجهه، وأشعر برعب القتل في أعماق كيانه، وها هو أضحى آثمًا بقتلي كما أصبحت أنا قبله، آه من تلك الابتسامة التي ترتسم على وجه آسيا لكم هي قذرة مقيتة!

أنفاسي التي بدأت تنفد تخنقني، لكن الندم يخنقني بأضعاف مضاعفة، هناك وعلى رفوف خزانتي امتلكت كتبًا تراكم الغبار فوق أوراقها، رغبت في قراءتها ولازلت حتى الآن أتمنى لو أمتلك الوقت للعودة ومعانقة كل ما هو غالي عزيز... لكن لا وقت.

هناك في مكان ما من الزمن تنتظر مخبوزات العيد وضحكاته التي تُبدد ظلام منزلنا وعتمته، لكم يأخذني حنين إلى تلك الساعات ولكم أتوق إلى عيشها مجددًا ومجددًا... لكنني ما عدت أملك الوقت.

أمطار شهر سبتمبر وثلوج أوائل يناير، رائحة القهوة وذاك البخور العربي المعبأ بالعطر، تلك القطة البيضاء التي اعتدت على إطعامها كل صباح وذاك العصفور الذي راقبته يبني عشًا هشًا للغاية فوق شجرة الفاكس الظليلة، تلك الفتاة اللطيفة في الصف التي لم أتعرف عليها، وسجادة صلاتي التي لم أستقم عليها، والرب الذي لم أتقرب منه والخطايا التي إكتنفتني بغتة...

ماذا كان نوع الحياة التي عشتها؟

يغزوني البرد ويهلكني الألم، يرتعش الجسد وترتجف الأطراف، وتتسلل دمعة من عيني لتستقر فوق العشب الأخضر وهي ترمقني بكراهية وتهمس "تستحقين

الموت" بينما يبلل سائل دافئ ملابسي ويستمر بالسيلان بلا توقف، ما الذي يحدث لي؟ لماذا أنا هنا؟.. شهقات أحدٍ ما يبكي وصوت أحدٍ ما يضحك... ولقد غلب النسيان عقلي وتنامت خفة عجيبة إلى أطراف جسدي، وهناك في الأفق البعيد تلاشت كل الأصوات ولم يتبق سوى سماءٍ تناثرت عليها النجوم المضيئة ولمع وسطها القمر المكتملة بإشراق...صوت أمي الذي يأتي من بعيد ينادي... يناديني لأذهب إليه ويحتضنني كفاها النعمان برقة، لا أشعر بشيء سوى أنني أبكي وأن دموعي المسكوبة تفيض وأنني قد تركت خلفي شيئًا شديد السواد كان يثقل كاهلي...

”لم أكن أكثر من شيطان متنكر على هيئة بشر ولم يكن سلاحي أكثر من جعلهم يعيشون في أوهام صدقوها بملء إرادتهم...أولئك البشر الذين كانوا بعيدين عن الرب سهل عليّ خداعهم ولم يكن إيقاعهم في فخي إلا كأخذ الحلوى من طفل صغير، وكما أخبرت الرب حين طردني إلى الأرض أنني سأُضِل البشر حتى النهاية وسأُبيح لهم ارتكاب الآثام التي ستهلكهم فسأظل أفعل ذلك.“

_ آسيا.

أُعطِيك ...

" الحياة مقابل الخطايا هل تقبل هذه الفكرة؟ ".

النهاية.

أَرِني جانِبك السيِّئ

الكاتبة: ثقة يوسف حامد

كان عليها أن تدرك أن العرض الشيطاني الصغير كاذب، ولم يكن على روحها التائهة أن تسمح لجانبها السيِّئ أن يُرى، ومرة أخرى وبسبب بؤس شخص آخر ها قد بدأت دائرة سوداء في الدوران، هل ستسلك بطلتنا طريق الخير مخلصًا أم طريقًا ظلاميًا معتمًا؟"

دار ماسلين للنشر الإلكتروني

تصميم صفحة شغف مصممة